العلاقَاتَ الحجاجيةَ فِي القَصص القَرآنِي

دة. بوسلاح فايزة
المدرسة العليا للأساتذة وهران

تعد هذه الدراسة بمثابة محاولة منا لاختبار نظرية الحِجاج على حيّزٍ من القصص القرآني، سعياً إلى معرفة أصول الحِجاج، وأهم أساليبهِ اللغوية؛ من خلال لغة القصص التي هي مزودة بجملة من المفردات والتراكيب المختلفة والمتنوعة، والتي تحوي عددا لابأس به من الرَّوابط المدعمة للنظرية الحجاجية في القرآن الكريم. إلى جانب ما يتعلق ب الخطابُ القرآني من أسباب للنُّزول ومناسباته، وسياقه التعبيري، ومدى التناسب بين الآيات والسور القرآنية، ونحو ذلك ممَّا له علاقة بالظاهرة الأسلوبيَّة للحِجاج في القرآن الكريم.

وعند معرض حديثنا عن الخطاب الحجاجي فنحن أمام مجموعة من العناصر التي تعقد نجاح العملية الحجاجية بين جميع أطرافها، والمتمثلة في المخاطِب، والمتلقي والقضية المطروحة، ومقام الخطاب، فكل هذه العناصر وغيرها ترتبط وتنتظم عبر ما يسمى بالعلاقة الحجاجية. ومفهومها عند العزاوي1 هو مفهوم عام ومرن، لما قد يرد على شكل علاقة شرطية، أو سببية، أو تفسيرية، أو تبريرية، أو استنتاجية.

1. العلاقات الحجاجية خارج الخطاب:

العلاقات الحجاجية خارج الخطاب هي تلك العلاقة التي تربط بين عناصر العملية التخاطبية، بدءا من طرفا الخطاب: المخاطب والمتلقي، وما بينهما من علاقة، بالإضافة إلى المكان والزمان، والعوامل المحيطة بهما: من اجتماعية، أو ثقافية، أو سياسية...وغيرها. وصولا إلى مقام الخطاب. فهذه العناصر تكوّن الجو الخارجي الذي من خلاله ينتج الخطاب من ظروف وملابسات معينة.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

أ. الخطاب الحجاجي والمخاطِب:

إنّ الخطاب الحجاجي من فعل المخاطِب وإنجازه، يبني من خلاله أفكاره، وقضاياه وفق طريقة تبين موقفه، وتحقق غاياته، ويتم ذلك وفق عملية متكاملة لفعل الحجاج. ويجب أن نشير إلى أن المخاطِب ليس على درجة واحدة في ذلك2؛ لأنّه قد يختلف مع غيره في المعارف، والعلاقات الاجتماعية، وحول الكيفية التي تكون بها المعرفة مشتركة أو غير مشتركة، متوافقة أو متعارضة، وحول الاعتقادات والمستويات، ليتعلق كل ذلك بتنظيم الخطاب الحجاجي وتشكيله، فلا بد أن يسوده التناغم ويحكمه الانسجام، فلا تخالف نتائجه مقدماته، ولا تناقض أوائله أواخره. هذا هو الطابع العام الذي يمنح الخطاب الحجاجي مصداقيته وقبوله.

وتحقيق ذلك يقتضي المعرفة بمقومات التناغم التي من الضروري توافرها في كل خطاب حجاجي وقد حددها الدارسون في ثلاثة:

1. القبول: فعلى المتكلم أن يبني خطابه الذي يحقق انخراط المتلقي في الكلام الذي رسمه؛ أي لا بد أن يضمن عملية التلقي ذاتها، ولا يتم ذلك إلا إذا وجد المتلقي في الكلام شكلا معقولا مقبولا، فيفهمه ويقبله.

2. مشابهة الحقيقة: فالعالم الذي يشكله المتكلم في الخطاب ينبغي أن يكون متصوّرا، وأن تكون أشياؤه قابلة للتحديد، وعلاقاته محتملة تطابق ما يحمله المتلقي من تصورات حول الواقع على مستوى الممكن والمستحيل.

3. الإقرار: فالغاية التي يرسمها الخطاب، والقيم التي يعتمدها يمكن للمتلقي تحديدها، ثم إقرارها والاقتداء بها3.

وكل هذه المقومات تتعلق بالغاية التي يتأسس عليها الخطاب الحجاجي؛ وهي الحرص على تقديم الفكرة المطروحة وتوضيحها من أجل حمل المتلقي على الإذعان، وبالتالي الاقتناع بالرسالة المقدمة.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

بقي أن نشير إلى أن المخاطِب يجب أن تتوافر لديه مجموعة من التقنيات التي تمكنه من التعامل مع متلقين متفاوتين في درجة الإذعان من جهة، وحسن اختيار العناصر ـ سواء كانت لغوية أو غير لغوية ـ المكونة للخطاب الحجاجي من جهة أخرى، وبالتالي تحقيق التوافق بين طرفي العملية الحجاجية. وقد ذكر قدامة بن جعفر أنه من "حق الجدل أن تبنى مقدماته بما يوافق الخصم عليه، وإن لم يكن في غاية الظهور للعقل، وليس هذا سبيل البحث، لأن حق الباحث أن يبني مقدماته مما هو أظهر الأشياء في نفسه، وأبينها لعقلها، لأنه يطلب البرهان، ويقصد لغاية التبيين والبيان، وألا يلتفت إلى إقرار مخالفيه فيه.

فأمّا المجادل فلما كان قصده أنه إنما هو إلزام خصمه الحجة، كان أوكد الأشياء في ذلك أن يلزمه إياها من قوله"4. وها هنا يدعو صاحب هذا القول إلى ضرورة مراعاة المتلقي في الخطاب، فيدعوه إلى الانطلاق مما هو معروف ومشترك وظاهر بينهما، لأنّ المخاطب الذي يتجاهل في خطابه المتلقي وحضوره، فإنه يرتكب خطأ كبيرا، وهو إذن يقوم بالمصادرة لأطراف الخطاب والحجاج معا.

فلمّا كان الهدف من كل عملية حجاجية إفهامي وإقناعي، انبنى الحجاج على قصد توجيه كلام يبتغي من خلاله المخاطب إقناع المتلقي بأمر معين. وهو ما يقتضي عنه الالتزام بشروط نظرية وعملية محددة، حتى لا يتيه المتلقي عن قصد المخاطب، ويفهم من القول ما هو غير مقصود منه. وحتى يتطابق المقصود مع المفهوم لا بد من مراعاة بعض العوامل:

ـ أن يتوجه المخاطب إلى المتلقي بكلامه؛ أي قصد المخاطب إبلاغ الخطاب بطريقة محددة.

ـ أن يتمكن المتلقي من فهم مقصود المخاطب، وأنه كان قاصدا إلى ذلك ولم تصدر عنه سهوا، أو كرها، أو غلطا، أو تغليطا. فقد يكون القصد فاسدا والفهم صحيحا، أو القصد صحيحا والفهم فاسدا، أو أن يجمع بين فساد القصد وسوء الفهم5. وانطلاقا من هذا يصبح القصد من أهم العوامل لنجاح كل

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

عملية حجاجية، وتفعيل السياقات المتعددة التي تحرك الحوار، وتضبط آلياته التأويلية.

ب ـ الخطاب الحجاجي والمتلقي:

إنّ نجاعة العملية الحجاجية مرتبطة بالدرجة الأولى بالمتلقي، باعتباره المستهدف من كل ذلك، وفق النشاط التأويلي الذي يقوم به لتقصي المقصد الذي يبتغيه المخاطِب. فقد أشار اللغويون العرب القدامى إلى تأثير المتلقي على المخاطِب عند إنتاج خطابه؛ إذ أبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللغوي ولا سيما على المستوى النحوي من حيث التذكير والتأنيث، والعدد مثلا، وتجسيده بعلامة لغوية كأسماء الإشارة. ولم يقفوا عن هذا الحد بل؛ بيّنوا دوره في سياق الخطاب وأثر ذلك تداوليا. فمن هؤلاء العلماء سيبويه فقد ذكر في باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة تبريرا معقولا فيقول:" وذلك قولك: ما كان أحد مثلك، وما كان أحد خيراً منك، وما كان أحد مجترئاً عليك. وإنما حسن الإخبار ههنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، ولأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا"6.

أمّا عن طبيعته فإننا نشير إلى أنه يمثل المخاطِب النسق العام الذي تنظمه الطروحات النفسية، والاجتماعية والثقافية للمجتمع، لذا فالمتلقي هو "الحامل للخصائص الجماعية الكبرى التي يتقاطع فيها السواد الأعظم، إنه بعبارة أخرى: الثقافة، والحضارة، والمجتمع، والنصوص الخلفية الثاوية في اللاوعي الموجه للوعي، وللفهم وللتعامل داخل الزمرة الاجتماعية الخاصة. وبالتالي يكون الخطأ في رسم صورته الفعلية مؤديا حتما إلى نتائج عكسية تماما"7. هذه البنية الموجهة للمتلقي هي التي تكوّن الرؤية العامة التي ينبني على أساسها المخاطِب خطابه الحجاجي.

ولكنّ هذا لا يعني عدم وجود اختلاف بين المتلقين؛ فأحوالهم تختلف، ومستوياتهم الفكرية والإدراكية تتعدد أيضا، وبالتالي تتنوع أشكال بناء الخطاب الحجاجي،

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

فلكي يحقق هذا الخطاب نجاعته، عليه أن يضع في الحسبان درجات العقول التي يستهدفها ثم نوعيتها.

وقد اهتم "بيرلمان" بهذه القضية حين ميز بين المتلقي الخاص(Particulier)، والمتلقي الكوني(Universel)، فإذا كان الباث في الخطاب الخاص يضبط بناءه الحجاجي بحسب مستوى المتلقي المضبوط والمحدد، فإنه في الخطاب الكوني يدقق ويحدد أكثر لأنه يتعامل مع متلقي أوسع، لذلك يأخذ بعين الاعتبار كل الاعتراضات الممكنة التي قد يطرحها المتلقي الكوني.

أمّا في القرآن الكريم فقد ميز "عبد الله صولة" بين نوعين من المتلقين8:

1- نوع يذكر داخل الخطاب القرآني، وهو ينقسم بدوره إلى قسمين:

أ- قسم مذكور معين باسمه، أو لقبه، أو بضمير الخطاب الذي يعينه؛ كخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وبني إسرائيل، وأهل الكتاب، والذين آمنوا...وغيرهم، ويمثلون ما يمكن أن يسمى في اصطلاح الحجاجيين بالجمهور "الخاص أو الضيق".

ب- قسم مذكور في القرآن، ولكنه غير معين ولا محدد، وقد جعل ضمير المخاطب المفرد عادة صورة نحوية لهم.

2- نوع يقع خارج الخطاب القرآني ولا يذكر فيه، ولكنه معني به، وهو جمهور المتلقين على اختلاف عصورهم وأمكنتهم، إنه بعبارة الحجاجيين "الجمهور الكوني"9.

ج- الخطاب الحجاجي والمقام:

لا يمكن التقليل من أهمية المقام في بناء الخطاب الحجاجي، فهو المنطلق الذي تعود إليه كل العناصر الحجاجية التي يبنيها المحاجج، والتي تستدعي الملائمة مع الموضوع من جهة، ومع المتلقي من جهة أخرى. وقد حدد "بيرلمان" تصورين للمقام؛ فهو تارة يعتبره الإطار المحدد للخطاب المستوعب لكل محتويات العملية الإبداعية، ولكل

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

المشاركين فيها، وتارة أخرى يعتبره تلك المقدمات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم10. وهو تفريق بين القيم ومختلف أشكالها كالعدل، الجمال، والحق... وغيرها، وكيفية عرضها في العملية الحجاجية، وكل ذلك يقتضي حسن التوظيف بحسب المسار المحدد والمخطط للإقناع.

وبعد هذا العرض العام لأهمية عناصر الخطاب الحجاجي من المخاطِب والمتلقي ومقام الخطاب. فسننتقل إلى العلاقات بين قضايا الخطاب، وهي علاقات عديدة ومتنوعة، بدليل تنوع الروابط المعبرة عنها. فيقر موشلار وريبول بأن الخاصية الأساسية للعلاقات الحجاجية هي أن تكون سلمية وتراتبية11، وسبب وصفها بهذه الصفة إنما يعود إلى ما يوفره العامل الحجاجي من تقوية (Renforcement) للحجة حتى يجعلها غير متساوية قوة وضعفا، تأثيرا وإقناعا.

2. العلاقات الحجاجية داخل الخطاب:

إنّ مفهوم العلاقة الحجاجية هو مفهوم واسع، بحيث يشمل مجموعة من العلاقات القائمة بين الحجة والنتيجة، ثم إن العلاقة الحجاجية يمكن أن تربط بين حجة واحدة ونتيجة، أو بين نتيجة واحدة ومجموعة من الحجج، ويمكن أن تربط بين عناصر صريحة وأخرى ضمنية.

أ. علاقة التتابع:

تكون علاقة التتابع إجمالا في مستويين؛ مستوى الأحداث حين تندمج الحجة في الواقع، وتنتهي بداهة إلى أحد الصنفين وهما: الحجة المؤسسة على بنية الواقع، والحجج شبه المنطقية. ومستوى أعمق من الأول يتصل بالحجج فيما بينها، حيث تقتضي الحجة حجة أخرى لتؤكد الثانية الأولى.

نجد هذه العلاقة جلية في القصص القرآني، حيث أن أول ما بدأ به الرسل عند دعوتهم هي طريقة النصح والإرشاد، ثم تطورت مجالات الدعوة بتطور

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

الأحداث والوقائع، لينتقلوا إلى طريقة المواجهة والمناظرة بتقديم البينات، وطرح الحجج لإلجام المنكرين والمعاندين بالأدلة القاطعة. فلكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليبها في الخطاب، "كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئاتهم، ويبدو هذا واضحًا جليًّا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب"12. فجاءت الدعوة إلى الله في القرآن الكريم بما يلائم نفسية المخاطب، والأمر كذلك في خطاب إبراهيم عليه السلام مع قومه، إذ ورد في آيات القرآن بسياقات مختلفة، وكان في كل مرة يستدرجهم ليصل بهم إلى الحقيقة الإلهية، إلا أن آلية الاستدراج اعتمدت طرق متعددة في كل حوار حجاجي؛ ومنها الاستدراج بالسؤال ومجاراة الخصم أولا، ثم بالاسترسال الخطابي والتسلسل الحجاجي ثانيا، وأخيرا بتقديم الشاهد الحجاجي.

1. الاستدراج بالسؤال ومجاراة الخصم:

ورد حوار إبراهيم عليه السلام في محاججته للشرك وإعلانه كلمة التوحيد، فقصته مع قومه شاهد على بطلان ما كانوا يدعون إليه من الغي والكفر، وتمثلت حجة ورود الخطاب من خلال المسافة الحجاجية التي تربط بين القولين:

ق1: ولقد آتينا إبراهيم من قبل وكنّا به عالمين

ق2: إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفين؟

إنّ المحاورة التي دارت بين إبراهيم عليه السلام وقومه، انبنت على آلية السؤال والجواب، فتشكلت بذلك بنى حجاجية قائمة بذاتها، وتمثلت في:

قال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟
قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

قال: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين

قالوا: أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟

قال: بل؛ ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن، وأنا على ذلك من الشاهدين

إلى أن ينتهي هذا الحوار الحجاجي بين إبراهيم عليه السلام وقومه بنتيجة أظهر بطلان ما يعبدون من دون الله. وهذا في قوله:" أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ". قالوا: "حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين".

لمّا تفوق إبراهيم عليه السلام بالحجّة القاهرة، لم يجدوا بدا إلا بالتخلص منه؛ فاختاروا معاقبته بالنار كعذاب أشد له. فجاءت كلمة الحقّ بعد تراكم الأحداث وتتابع الحوار الحجاجي لتبهتهم، وتنصر نبيه ضد قوم الضلالة قال تعالى:" يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ". نستنتج من هذه الاية الكريمة أنّ الله تعالى جعل من هذه الحادثة برهانا حقا، وشاهدا ساطعا، على ألوهيته وربوبيته، وأنه وحده القادر والمتصرف في شؤون الكون، وما فيه من قوانين ونواميس وفق ما يشاء.

2ـ الاسترسال الخطابي والتسلسل الحجاجي:

إنّ الآلية التي تبناها إبراهيم عليه السلام في مجاراته لقومه والتي انبنت أساسا على محاوراته الحجاجية بغية تحقيق استراتيجية تخدم موضوعه ألا وهي آلية الاستدراج،" المتشكلة من خلال عملية الاسترسال الخطابي والتسلسل الحجاجي. حيث بدأ الاستدراج في هذه المحاورة بسؤال إبراهيم عليه السلام لقومه عن حقيقة هذه الأصنام التي يعبدونها، والسؤال باعث على ربط الاتصال مع الطرف الآخر، وحمله على المشاركة، فالاستفهام في أصله يتطلب جوابا، وهذا ما يحمل المتلقي إلى توجيه كل اهتمامه لما يلقى إليه، ليتمكن من فهمه

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

ثم الإجابة عليه. فإن السؤال في كلام العرب على نوعين أشهرهما أن يسأل السائِل عما لا يعلمه ليعلمه، والآخران يسأل على وجه التقرير حين يكون السائِل يعلم حصول المسؤول عنه، ويعلم المسؤول أن السائل عالم وأنه إنما سأله ليقرره"13.

كما نرى أنّ الاستفهام تعدى حقيقته إلى الاستنكار والسخرية، وفي ذلك نلمح بعدا حجاجيا، يتلخص في عدم الملائمة بين حقيقة الأصنام المعبر عنها "بالتماثيل"، وبين وصفها بالعبودية المعبر عنها "بالعكوف عليها"13. ويلعب الاستفهام هنا دورا مهما في العملية الحجاجية؛ نظرا لما يجلبه من المتلقي في عملية الاستدلال، بحيث أنه يشركه بحكم قوة الاستفهام وخصائصه التعبيرية، "ومن سمات الاستفهام البلاغي في القرآن الكريم، أنه يخدم مقاصد الخطاب، ويلعب دورا أساسيا في الإقناع بالحجة"14.

جاء استفهام إبراهيم عليه السلام بهذا الأسلوب ليعبر عن حقيقة الأصنام التي يعبدها قومه، ومن أجل أن يدفع بعقولهم إلى التفكر فيما حولهم، وفي هذا حجة ضمنية، فجاء السؤال بـ"ما" "أنه لطلب شرح ماهية المسؤول عنه"15. فردوا على حجته بقولهم:" وجدنا آباءنا لها عابدين"، وبالتالي لا حجة لهم في عبادتهم لهذه التماثيل التي صنعوها، وأقاموها بأنفسهم، إلا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها، فجاءت حجتهم بالتقليد الأعمى؛ أي تقليد الآباء والأجداد. "ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل"16.

لقد ساهم الالتفات القائم على تأكيد إبراهيم عليه السلام ضلال قومه في توسيع دلالة المحاججة، كما أن الانتقال في الكلام من ماهية المعبود إلى من خلق هذه العبادة الضالة، أدى إلى الانصراف من معنى إلى معنى آخر؛ فالأخبار المؤكد بقوله: " لقد " شكل الدينامية الأساسية لفعل التحاور، ولما كان الأمر كذلك؛ بمعنى هذا الانتقال إلى تضليل الآباء، جعل القوم يستفهمون بسؤالهم "

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ " فأوّلوا كلامه بالمزاح، إن هذه المقدمات أو الحجج توصل إلى نتيجة " بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ "17.

ح1: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟

ح2: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين

ن= بل؛ ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن، وأنا على ذلك من الشاهدين هذه المحاورة القائمة على السؤال والجواب، كانت المعبر الأساس للمحاججة التي أفضت إلى نتيجة إعلان إبراهيم عليه السلام التوحيد، فهو شاهد على أن ربهم ربّ السّموات والأرض، ومعه الدليل على هذه الحقيقة.

3. الشاهد الحجاجي:

لقد حوت حجج إبراهيم عليه السلام رؤية جديدة تجسدت في عقيدة التوحيد، رفضها قومه لعدة عوامل، ممّا نتج عنه أزمة تواصلية جعلت إبراهيم عليه السلام يقيم حجته بالفعل لا بالكلام فقط، فأقسم بالله أن يكيد أصنامهم، مستعملا أسلوب القسم، وتوكيده بغية إحقاق الحجة التي يستبعدها المخاطب. وهذا لتمرير خطابه الحجاجي، وفق عملية استدراجية لقومه، من خلال تحطيم الأصنام التي تعد بمثابة مقدمات حجاجية لتدعيم قضيته، وهنا نرى العملية الحجاجية تنطلق من سؤال استفهامي عن من الذي قام بتحطيم الأصنام، فقالوا:" أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم "، فكان الجواب بحجة ضمنية، " بل فعله كبيرهم هذا، فاسألوهم إن كانوا ينطقون؟".

إنّ هذا الردّ هو بمثابة إضفاء الحجّة ذات الميزة القوية، لأنه يلزم المخاطَب بتكملة العناصر غير المصرّح بها، وهذا من خلال عملية حل الرموز

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

المشفرة، بغية إحداث تعاون مع المخاطِب. ثم صرّح وجعل من حجته عملية بعدما كانت ضمنية ـ حينما قال:" فاسألوهم إن كانوا ينطقون؟". وبالتالي أقام الحجة عليهم، فكأنه أراد أن يقول:" لو كان هذا إلهاً لما رضي بالاعتداء على شركائه، فلما حصل الاعتداء عليهم بمحضر كبيرهم، تعين أن يكون هو الفاعلَ لذلك، ثم ارتقى في الاستدلال بأن سلبَ الإلهية عن جميعهم بقوله:" إن كانوا ينطقون"18.

لقد اعتمد إبراهيم عليه السلام هنا شاهدا حجاجيا أمام الملأ، حتى يكون دليلا مرئيا يقوّي حجته القولية، والشاهد هو الطريقة المثلى التي تنبني عليها تقوية وتأكيد القضية المراد توكيدها، "وذلك بإعطائها مظهرا حيا، وملموسا؛ إذ لا يتعلق الأمر بالتدليل بقدر ما يعمل الشاهد على تحريك المخيلة...وتفرض عليه(أي المخاطَب) الانتباه وتسهّل عليه عملية الفهم"19.

إنّ اختيار إبراهيم عليه السلام للحجّة المناسبة لدعواه، تعد بمثابة نقلة نوعية في العملية الحجاجية مع قومه، وهذا ما نلمحه في قوله تعالى:" ثم نكسوا على رؤوسهم" وفي هذا تلميح إلى أنهم كادوا يعترفون بالحجة والغلبة. رجعوا إلى المكابرة والانتصار لأصنامهم، فقالوا:" لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ"، فحولوا بذلك حجة إبراهيم عليه السلام إلى استدلال آخر يخدم غرضهم فقالوا:" أنت تعلم أن هذه الأصنام لا تنطق فما أردت بقولك إلا التنصل من جريمتك"20.

ثمّ إنّ إقامة إبراهيم عليه السلام الحجة على فساد عقيدة قومه، جعلهم يجمعون على إحراقه بالنار، لتكون نهاية المحاججة انتصار إبراهيم عليه السلام، متجسدا في قوله تعالى:" يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ". فقد "عكست هذه المحاججة واقع عقلية الجاحدين والمنكرين الذين يجادلون بغير حق، وكأنها محاكمة تنتصر فيها قوة القول(الحجة) بقوة الفعل(الإقناع)"21.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

ب . علاقة السبب بالمسبب:

تعد علاقة السبب بالمسبب من أبرز العلاقات الحجاجية، وأقدرها على التأثير في المخاطَب، حيث لا يكتفي المخاطِب فيها على ربط الأفكار، والوصل بين أجزاء الكلام؛ بل يعمد إلى مستوى أعمق، فيجعل بعض الأحداث أسبابا لأحداث أخرى، ويسِم فعلا ما بنتيجة متوقعة لفعل سابق، ويجعل موقفا معينا سببا مباشرا لموقف لاحق. وهذا ما نلمحه جليا في قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع أبيه في قوله تعالى:﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.22

تبين لنا الآية هذه صورة مؤثرة للوالد المفجوع، الذي ألهبته نار الفرقة على ابنه، يبكي ولده الحبيب يوسف عليه السلام الذي لم ينسه، ولم تهوّن من مصيبته السنون، والذي تذكره به فاجعته الثانية بفقدان ابنه بن يامين الأخ الأصغر ليوسف:" يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُف "22. ويكظم يعقوب عليه السلام حزنه محتسبا أمره لله تعالى، فينعكس هذا الكظم على عيني يعقوب عليه السلام فتبيض حزناً وكمداً:﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْن فَهُوَ كَظِيم ﴾23.

ويردّ عليهم يعقوب عليه السلام بأن شكوته لربّه، هو المطّلع به وبحاله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾24، وفي هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب الموصول بالرب عز وجل. فهذا الأسف من قبل يعقوب عليه السلام كان نتيجة تراكم مجموعة من الأسباب، أهمها:

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

1. لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين.

2 ـ خروج ابنه روبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية.

3 ـ لما لم يصدقهم أعرض عنهم ورجع إلى التأسف على يوسف دون أخيه الثاني والثالث الذاهبين، لأن حزنه عليه كان أشدّ، لإفراط محبته، ولأن مصيبته كانت السابقة.

4 ـ وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة، لأن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن.

فكل من هذا التتابع السببي لهذه الحادثة ـ أي فقدان يعقوب لأبنائه ـ أدت إلى وجود مجموعة من النتائج جاءت مترتبة على الشكل التالي:

ن1. لما ضاق صدره بفقدان بنيه، ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، وروبيل.

ن2 لما أعرض عنهم رجع إلى التأسف، والبكاء على يوسف حتى ابيضت عيناه.

ن3 أراد يعقوب عليه السلام من كظم غيظه تبيان حقيقة الإيمان الحقيقي، بالتجلي والتحلي لله وحده لا شريك له.

إن الحسرة والأسف من قبل يعقوب عليه السلام التي مني بها تعد من أسباب الحزن وشدته، بسبب كثرة البكاء، والتي كانت نتيجة ابيضاض العينين لفراق فلذة كبده يوسف عليه السلام. وهذا ما أكّده الزمخشري فقال:" الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض، فكأنه حدث من الحزن"25. ثمّ إنّ هذه النتيجة تصبح سببا لنتيجة أخرى باعتبارها نتيجة الخطاب الحجاجي، والتي توحي أن يعقوب عليه السلام أراد من خلال حِلمه وكظم غيظه تبيان حقيقة الإيمان، والتوكل على الله عز وجل في السّراء والضرّاء.

إنّ هذا الواقع الذي يوحي باليأس وانقطاع الرجاء من ظهور يوسف عليه السلام مرة أخرى الذي كان لدى يعقوب عليه السلام، وكذب بنيه عليه، لم يغير إيمان يعقوب عليه

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

السلام، وتوكله على الله تعالى الواحد الأحد، وهذا ما يعبر عنه بأعلى مراتب الايمان الحقيقي.

ج ـ علاقة الاقتضاء:

يعد الاقتضاء أحد الموضوعات الهامة التي اهتمت بها الدراسات التداولية، كونه يقوم على المقصد الذي يبتغيه المخاطب من خلال كلامه. فهو بذلك يتكون من عنصرين أساسين هما: المقتضي(وهو الكلام المنطوق به في الخطاب)، والمقتضَى(وهو الكلام المقدر) وبهذين العنصرين يتحقق فعل الاقتضاء. فعلاقة الاقتضاء تندرج ضمن إطار تفاعلي بين عناصر الخطاب، حيث تجعل الحجة تقتضي النتيجة، فتغدو العلاقة ضربا من التلازم، وهو ما لا توفره سائر العلاقات الأخرى، وأقدر الروابط الحجاجية على توفير هذا النوع من العلاقة أدوات الشرط المختلفة، فتكون بذلك علاقة الاقتضاء ذات طاقة حجاجية عالية26. فالجملة الشرطية من حيث وظيفتها الحجاجية تبين لنا قدرتها على توفير علاقة الاقتضاء بين السبب والنتيجة، سبب يمثله الشرط، ونتيجة يمثلها الجواب. وبين النحاة القدامى أن جملة الشرط سبب في جملة الجواب، فقال ابن جني:" وذلك أن حقيقة الشرط وجوابه أن يكون الثاني مسبَّبا عن الأوّل، نحو قوله : إن زرتني أكرمتك فالكرامة مسبَّبة عن الزيارة"26.

فالجملة الشرطية تبين علاقة الاقتضاء أيضا بين حجة يمثلها الشرط والجواب معا، ونتيجة يصرّح بها المتكلم تارة ويخفيها تارة أخرى. وذلك على نحو ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه عند تحطيم أصنامهم:﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾27.

ما يمكن ملاحظته هو وقوع حذف جملة تقتضيها دلالة الاقتضاء، والتقدير:" فأتوا به". وقوله تعالى: "بل" إبطال لأن يكون هو الفاعل لذلك، فنفي

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

أن يكون فعل ذلك، لأن "بل" تقتضي نفي ما دل على كلامهم من استفهامه. فهو يعقد بالشرط علاقة اقتضاء بين حجة ونتيجة حين يقول:"فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا" فالخبر مستعمل في معنى التشكيك، أي: لعله فعله كبيرهم، إذ لم يقصد إبراهيم عليه السلام، نسبة التحطيم إلى الصنم الأكبر، لأنه لم يدع أنه شاهد ذلك، ولكنه جاء بكلام يفيد ظنه بذلك، حيث لم يبق صحيحا من الأصنام إلا الكبير. وفي تجويز أن يكون كبيرهم هذا الذي حطمهم دليل انتفاء تعدد الآلهة، لأنه أوهمهم أن كبيرهم غضب من مشاركة تلك الأصنام له في المعبودية، وذلك تدرج إلى دليل الوحدانية، فإبراهيم عليه السلام في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد إلزامهم الحجة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطمة بطريق الأولى على نية أن يكر على ذلك كله بالإبطال، ويوقنهم بأنه الذي حطم الأصنام، وأنها لو كانت آلهة لدفعت عن نفسها، ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدفع عن حاشيته، ولذلك قال:﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ تهكما بهم وتعريضا بأن ما لا ينطق ولا يدافع عن نفسه غير أهل للإلهية." جعل إبراهيم النطق شرطاً للفعل، والمعنى إن قدروا على الفعل، فأراهم عجزهم عن النطق والفعل"28، هذه هي الهداية الربانية التي جعلت إبراهيم عليه السلام قادرا على النظر العقلي والتصرف فيما حصل له من علم لدني يقيني بهذه الطريقة الحجاجية.

تؤكد هذه العلاقة أن الحجاج في جانب من جوانبه يعد فنا للانتقال من فكرة لأخرى بشكل منظم وميسر، مع مراعاة مناسبة الآيات وترابطها.

نخلص من هذا العرض للعلاقات الحجاجية بنتيجة واضحة، هي سيطرة نموذجين متقابلين على شخصيات القصص القرآني وهي: نموذج الشر، ويبدأ مع قصة الخلق، متمثلا في شخصية إبليس، ويمتد إلى بقية القصص متمثلا في أتباعه السائرين على دربه من المكذبين الضالين. كما يقابله نموذج الخير، الذي

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

يمثله أنبياء الله المرسلين بالهدى ودين الحق، وأتباعهم من المؤمنين المهتدين. ونستطيع أن نوضح ذلك في الشكل التالي:

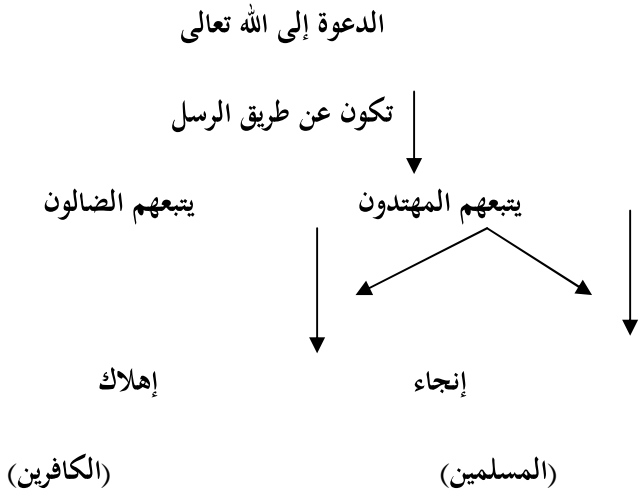

من خلال هذا المخطط نستنتج وجود نوعين من العلاقات: علاقات بين البشر؛ كعلاقة الرغبة، والمتمثلة في رغبة الرسل في هداية أقوامهم، ورغبة المكذبين في الخلاص من المؤمنين، ورغبة المؤمنين في هداية الضالين. وعلاقات بين الله عز وجل وأنصاره: الرعاية، والإنجاء من بطش المكذبين ومكرهم، وبين الله تعالى وحزب الشيطان من الكافرين، اللعنة والإهلاك في الدنيا والآخرة.

خاتمة:

من هنا كان خطاب القصص القرآني خطابا حجاجيا؛ لأنه جاء ردا على خطابات تحمل أفكارا خاطئة، منها ما يتعلق بقضايا التوحيد كالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، والإيمان بكتب الله ورسله وملائكته، ومنها ما يتعلق بأمور الآخرة، وأسلوب الحياة في الدنيا، معتمدا على حجج مقنعة بمستويات وسلمية مختلفة، بغية إقناع المتلقي. كما أنّ سلمية القصص القرآني اعتمدت أساسا

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

على حقائق عقلية صحيحة لا يمكن تكذيبها، خصوصا تلك المتعلقة بالتدبر والتفكر في الكون عبر الاستدلال والبرهان والاقناع.

وعليه جاء اعتماد الخطاب القرآني على تلك العلاقات الحجاجية من خلال القصص القرآني مخاطبا جميع الناس باختلاف فئاتهم، ومستوياتهم، وعقلياتهم وذهنياتهم؛ حيث أنّ رسالته عالمية وليست مقتصرة على أمة معينة، أو مكان معين أو زمان معين، بل جاء لكافة الناس ضمن منطلق الحجج والأدلة العقلية.

الهوامش:

1) ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، 2009، ص:77.

2) أفرد ابن الجوزي فصلا في ذكر الخطاب بالقرآن، وصنفه في خمسة عشر وجها:" خطاب عام(خلقكم)، خطاب خاص(أكفرتم)، خطاب الجنس(يا أيها الناس)، خطاب النوع(يا بني آدم)، خطاب العين(يا آدم)، خطاب المدح(يا أيها الذين آمنوا)، خطاب الذم(يا أيها الذين كفروا)، خطاب الكرامة(يا أيها النبي)، خطاب التودد(يا بن أم)، خطاب الجمع بلفظ الواحد(يا أيها الإنسان)، خطاب الواحد بلفظ الجمع(وإن عاقبتم)، خطاب الواحد بلفظ الاثنين(ألقيا في جهنم)، خطاب الاثنين بلفظ الواحد(فمن ربكما يا موسى)، خطاب العين والمراد به الغير(فإن كن في شك)، خطاب التلو وهو ثلاثة أوجه: أحدها أن يخاطب ثم يخبر(حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم)، والثاني أن يخبر ثم يخاطب(فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم)، والثالث أن يخاطب عينا ثم يصرف الخطاب إلى الغير(إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ليؤمنوا بالله ورسوله). ابن الجوزي أبي الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر، المدهش، مروان قباني، تح: دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 1985، ج1،ص:16.

3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص:.36

4) نقد النثر، ص:119.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

5) حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2004، ص:168.

6) الكتاب، ج1، ص:.11

7) محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند "بيرلمان" وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر ، عد3، 2000، ص:69.

8) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص:.41

9) المرجع نفسه، ص:.42

10) محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند "بيرلمان" وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص:85.

11) (A) Reboul et (J) Moeschler: Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique ,p88 .

12) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 2000م، ط3، ص:59.13

13) ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص:.147

13) سعدية لكحل، الحجاج في خطابات النبي إبراهيم عليه السلام، رسالة ماجستير، قسم الأدب العربي جامعة مولود معمري تيزي وزو، إشراف أ.دة. آمنة بلعلى، دت، ص:.68

14) الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجا، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع: 12، ص:.342

15) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص:94.

16) الزمخشري، الكشاف، ج3، ص:.122

17) سعدية لكحل، الحجاج في خطابات النبي إبراهيم عليه السلام، ص:.69

18) المصدر نفسه، ص:71. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص:102.

19) عبد السلام عشير، عندما نواصل نغير، ص:.96

20) سعدية لكحل، الحجاج في خطابات النبي إبراهيم عليه السلام، ص:.72

20) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص:104.

21) يوسف، الآيات : 82 – .84

22) يوسف، الآية: .86

23) الآية نفسها

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

24) الآية نفسها

25) الكشاف عن حائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج2، ص:.468

26)ينظر محاضرات في تحليل الخطاب:

www.ouarsenis.com/vb//attachment.php ? attachmentid

26) الخصائص، تح: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ج3، ص: .175

27) الأنبياء، الآية:62 . .63

28) أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان، تح: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2002 م، ط1، ج6، ص:280. منشور على الشبكة العنكبوتية:

http://data0.zic.fr/loqmane/mod_article1344918_1.pdf

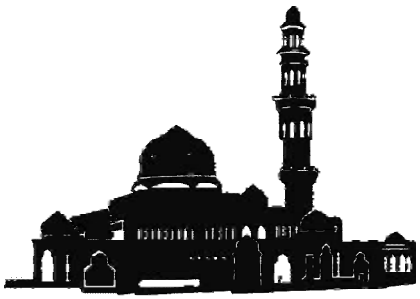

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com